الفصل الثاني

الأسطورة العقائدية

يحمل لنا القرآن الكريم آيه تدل على وجود الأساطير الطقوسية عند العرب . فقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [1] (والمكاء هو الصفير والتصدية هى التصفيق) .

تؤكد هذه الآية الكريمة أن مرحلة الغناء والرقص المصاحب للعبادات الطقوسية قد عفها العرب كما عرفها غيرهم ، ولكن بينما احتفظ غيرهم بها ذابت عند العرب ولم يعد منها إلا ما قد تدلنا عليه بعض أسجاع الكهنة المتبقية فى كتب التاريخ والسيرة والأدب .

وعلى توقيع الدفوف والصفير تقول إحدى أسجاع الكهنة :

- لا هم ~~لا~~ لا هم ...
- لبيك ياولى النعم .
- إن كان خيرا فهو منك ولك .
- تملكنا ولا غلك .
- فلا تضفى .
- ولا رمد .
- تقبل وربة الأثر .

---

[1] سورة الأنفال ، الآية (٣٥) .

وربة آل أثر كما يقول فيسلون فى الفصل الذى كتبه فى كتاب تاريخ العرب القديم هى آلهة الشمس عند العرب والمسماة باللات ....

غير أن كتب التاريخ والأدب وإن كانت لم تحفظ لنا إلا النذر اليسير من هذه الطقوس وما كان يصاحبها من قول ، فانها فى الوقت نفسه قد احتفظت لنا بأخبار هـذه الأصنام واسمائها ، وأسماء القبائل التى كانت تعبدها ، وبعض العادات العامة الـتى صاحبت عبادة الأصنام . وكذلك بعض الأساطير التى رويت حولها وحول سر عبادة الناس لها .

يقـول ابـن هشـام فى كـتابه السيرة النبوية موضحاً ما كان يفعله العرب بالأصـنام: قال ابن إسحق : " واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما صنع حين يتوجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله ، فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوحيد قالت قريش: أجعل الآلهة الهاً واحداً ، أن هذا لشيء عجاب ؟ .

ويقـول ابن إسحق : " وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنه وحجاب ، وتهدى لها كما تهدى للكعبة ، وتطـوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهى تعرف فضل الكعبة عليها لأنها كانت تعرف أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده ... "[1].

ويعـدد لنا ابن هشام فى السيرة النبوية القبائل وأصنامها التى يعبدها : فقد كانـت لقـريش وبنى كنانه العزى ، وكانت قريش قد أتخذت صنماً على بئر فى جوف الكعبة يقال له هبل ، وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكانت مناه للاوس

---

(1) السيرة النبويـــــة .

والخـــزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب ، وذو الكلاع من حمير أتخذوا نسراً بأرض حمير .

ولقد كانت لقوم نوح أصنام عكفوا عليها ، قص الله تبارك وتعالى خبرها على رسوله صلى الله عليه وسلم ... فقال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [1] صدق الله العظيم.

ويحكـــى لنا ابن الكلبى فى كتابه الاصنام عن هبل فيقول : " كان هبل أعظم أصـــنام العـــرب التى فى جوف الكعبة وحولها ، وكان من عقيق أحمر على صورة إنســـان مكســـور اليد اليمنى ، ادركته قريش كذلك ، فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر وكان يقال له هبل خزيمة وكانت تضرب عنده القداح .... " [2].

ويـــروى لـــنا ابن الكلبى صورة من حرص العرب على أصنامهم وتقربهم فى حديث لـــه عن العزى حيث يقول : " لقد بلغ من حرص قريش على عبادة العزى أنـــه لما مرض أبو أصيحة المرض الذى مات فيه دخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكى فقال له أبو لهب : " ما يبكيك يا أبا أصيحة ؟ أمن الموت تبكى ولا بد منه ؟ فقال أبو أصيحة : " الآن علمت إن لى لله خليفة " [3] وواضح أنه أعجبه من أبى لهب شدة نصبه فى عبادتها ...

الـــيس لنا أذن أن نعجب ونحن نرى كل هذا الحشد من الأصنام ، وكل هذا الـــتقديس لها والتفانى فى عبادتها ، من ضياع كل ما كان حولها وحول عبادتها من تراث قولى يبقى للعرب رصيداً منن الأساطير والحكايات الخرافية .

---

(1) سورة نـــوح ، الآيـــة (٢٣) .

(2) كتاب الأصنام لابن الكلبى .

(3) المرجع السابق .

الأمـــر أن الإســـلام جب ما قبله بكل ما فيه والأمرأن ذكر تاريخ الأصنام شـــيء، وذكر ما حولها من أساطير وما صاحب عبادتها من ابداع قولى شيء آخر حرص الإسلام على إزالته تماماً ٠ وإذا كان الفن القولى المصاحب للعبادات الوثنية قـــد اندثر فإن كتب السير والتاريخ ، وكتب الأدب كذلك ابقت لنا بعض الصور من الأعمال القولية التى صاحبت هزيمة الوثنية واندحارها ٠٠٠ وهى فى حد ذاتها تعطى دلالات على نوع التصورات العقلية والوجدانية التى صاحبت العبادة الوثنية قبل الإسلام ، وإن خلت من تماويل الأسطورة وتعقيداتها وشطحاتها فى عالمى الخيال والوجدان .

يقـــول ابـــن إسحق : أتخذ العرب اسافاً ونائله ، على موضع زمزم ينحرون عندهما [1] .

ويعرفنا الالوسى وابن الكلبى بهذين الصنمين فيقول ابن الكلبى : " كان أحد هذيـــن الصنمين أولاً يلصق بالكعبة والآخر فى موضع زمزم ، فنقلت قريش الذى كان يلصق بالكعبة إلى الآخر " [2] .

ونستكمل حديث ابن هشام عن اساف ونائلة يقول :

" كـــان اســـاف ونائلة رجلاً وامرأة من جرهم ٠٠٠ هو اساف بن ريغى ، ونائلة بنت ديك ٠٠ تفحش اساف بنائلة فى الكعبة فمسخهما حجرين ٠٠ " [3].

هـــنا ملامح أسطورة كاملة ولكن كما نرى لم يبق منها إلا الخبر وحده ٠٠٠ ونجـــد صدى هذا الحديث فيما نقله ابن هشام عن ابن إسحق عن عائشة رضى الله

---

(١) السيرة النبويـــــة .

(٢) كتاب الأصنـــــام .

(٣) السيرة النبويـــــة .

عنها حيث قالت : " مازلنا نسمع أن اساف ونائلة كانا رجلا وامرأة من جرهم ، احدثا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ... والله أعلم .. " [1] .

ونحن لو تتبعنا الطقوس التى كانت تمارس داخل معابد الأصنام لوجدنا أنها كفيلة بخلق أساطير كثيرة ، وأنها أيضاً كفيلة بخلق مجموعة من الحكايات الخرافية والأعمال ذات الطابع الدرامى كان يمكن أن تثرى مورثنا من الأدب الأسطورى ومن الأدب الشعبى على السواء ... ومن هذا ما كان يتبع مثلاً عند هبل ... يقول ابن هشام :

قال ابن إسحق : كان هبل على بئر فى جوف الكعبة ، وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها ما يهدى للكعبة ... وكان عند هبل سبعة أقداح .. قدح فيه نعم للأمر إذا رادوه يضرب به القداح ، فأن خرج قدح نعم عملوا به " [2].

وبالطبع هناك قدح لا ، إذا ضربوا على أمر وخرج لهم امتنعوا عن فعل ذلك الأمر ... وهناك أيضاً قدح فيه المياه إذا أرادوا أن يحضروا للماء ضربوا القداح فإذا خرج لهم قدح المياه صرفوا وإلا لم يحفروا البئر ... .

ونعود إلى ابن هشام نستكمل معه حديث القداح :

قال ابن إسحق : " كانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو يزوجوا رجلاً أو يدفنوا ميتاً أو شكو فى نسب أحدهم ذهبوا على هبل ومعهم مئة درهم وذبيحة ، فأعطوها صاحب القداح الذى يضرب بها فيقول لهم صاحب القداح : " قربوا الذبيحة هنا وأذبحوها ... ثم قربوا صاحبكم الذى تريدون أن تعرفوا أمره فيجيبونه قائلين : أما الذبيحة فيها هى هدية منا لهبل الإله الأعظم ... وأما ما

---

(1) السيرة النبوية .

(2) السيرة النبوية .

نـــريده فهـــو معرفة نسل صاحبنا هذا أهو منا أم هو ليس منا فيول لهم صاحب القداح :

أعطوا الذبيحة للغلام تذبحها وليلطخ بدمائها أقدام هبل المعظم ... ثم تعالوا إلى أعلمكم ما تقولون أمام ألهكم لتعرفوا الأمر فى صاحبكم ...

فينادون هبل قائلين :

" يـــا ألهنا هذا صاحبنا زيد بن عمرو أردنا أن نعرف الحق فيه أهو منا أم ليس منا وقد ادخل نسبه علينا إدخالا " . فيقول لهم صاحب القداح :

" سأضـــرب بالقداح فان خرج القدح الذى فيه منكم كان صاحبكم منكم خـــالص النسب شريفاً فيكم ... فان خرج القداح الذى عليه – من غيركم – كان لكم حليفاً فان خرج القداح الذى ملصق فهو لا نسب له ولا حلف ..."

يقول ابن إسحق : " أن خرج لهم نعم فى أمر عملوا به ، وأن خرج لا أقروه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى إلى هبل ... ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح ... " [1] .

وترد عادة ضرب القداح عند هبل هذه بطريقة أخرى فى كتاب بلوغ الأرب فى أحوال العرب للالوسى إذ يقول :

كـــانوا إذا قصدوا فعلاً أو أمراً ضربوا ثلاثة أقداح ، مكتوب على أحدها ، أمرنى ربى ، وعلى الآخر نهانى ربى ، والثالث غفل لا شىء عليه ، فأن خرج الأمر مضـــوا على ذلك ، وأن خرج النـــــاهى تجنبوا عنه ، وأن خرج الغفل أجالوا ثانية .... [2] .

---

(١) السيرة النبويـــــة .

(٢) بلوغ الأرب للألوسى .

ولعلهم كانوا يستعملون فى القداح عند هبل الطريقتين ...

وما كنا لنعرف كل هذه الطقوس وما يصاحبها من ابتهالات وأدعية وأسجاع (هى ما عرفت بسجع الكهان) مما ورد فى كثير من كتب التاريخ والأدب لولا أن أديب الأسطورة العربية احتاج إليها فى فترة هامة من فترات الحياة العربية ... تلك هى فترة التمهيد للإسلام .

فكان لا بد للأديب لكى يدخل الإسلام إلى قلوب أبناء الجزيرة أن يستعمل فنه وأدبه فى إثبات ما انتهى إليه أمر عبادة الأوثان والأصنام والنجوم والجن والديانات الأخرى من إقرار بفساد الأمر كله وبالحاجة إلى عبادة جديدة تنسخ هذا الذى يعيشون فيه من إفك ويمهد لما يقبل من نور وإشراق . وكان لابد أن يتقدم الأديب العربى بقلمه ليعيد القلوب النافرة وليأخذها من ظلام الشرك إلى نور اليقين .

وهكذا استغل أديب الأسطورة العربية هذه العادات والعبادات ولم يتحرج من ذكرها فى فترة هامة من فترات التاريخ العربى تلك هى الفترة التى سبقت ظهور الإسلام وما كنا لنعرف أمر هبل والقداح لولا أنها تلعب دوراً كبيراً فى سيرة عبد المطلب وأبنه عبد الله وحفره لبئر زمزم وفدائه لعبد الله استنقاذاً له من قداح هبل ... ولنا عند هذا الاستعمال الذكى الواعى ، والذى يكشف عن قيمة أديب الأسطورة العربى وقفة طويلة .

*****